

الشفاحات الشارث

بقلم: أ. عبد الحميد عبد القصود
 رسوم: أ. إسماعيل دياب
 إشراف: أ. حمدي مصطفى



يُحْكِي أَنَّ الْخَلِيفَةَ (هَارُونَ الرَّشِيدَ) كَانَ مَشْهُورًا بِالتَّنَكُّرِ
وَالنُّخْفَى ، وَالْخُرُوجِ مِنْ قَصْرِهِ لَيْلًا ، لَتَقْقُدَ أَحْوَالِ الرُّعِيَّةِ
وَالْحُكَّامِ ، حَتَّى يَرُدَّ الْمَظَالِمَ إِلَى أَهْلِهَا ، وَيُنْصِفَ الْمَظْلُومَ مِنَ
الظَّالِمِ ، وَيَقْتَصِرَ مِنَ الظَّالِمِ لِلْمَظْلُومِ ..

وَيُحْكِي أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ وَزِيرِهِ (جَعْفَرٍ) وَسَيَّافِهِ (مِسْرُورٍ) ذَاتَ
لَيْلَةٍ مُتَنَكِّرِينَ ، فَسَارُوا فِي سُوَارِعِ مَدِينَةِ (بَغْدَادٍ) وَضَرُّوا فِي
أَسْوَاقِهَا ، حَتَّى مَرُّوا بِرَقَاقٍ ضَيِّقٍ ، فَشَاهَدُوا شَيْخًا كَبِيرًا يَحْمِلُ
عَلَى كَتِفِهِ شَبَكَةً ، وَعَلَى رَأْسِهِ قَفَّةً ، وَفِي يَدِهِ عَصَا ، وَشَكْلُهُ
يُوحِي بِالْبُؤْسِ وَالْفَقْرِ ، وَهُوَ يُنْشِدُ شِعْرًا مُؤَثِّرًا يَشْكُو فِيهِ حَالَهُ
وَقُفْرَهُ ، فَتَعَجَّبَ الْخَلِيفَةُ ، وَقَالَ لَوْزِيرِهِ (جَعْفَرٍ) :

- أَحْضِرْ هَذَا الشَّيْخَ ، لِنَنْظُرَ حِكَايَتَهُ ، لَأَنَّ حَالَهُ وَكَلَامَهُ يُدْلَانِ
عَلَى شِدَّةِ فَقْرِهِ وَاحْتِيَاجِهِ ..

فَأَحْضَرَ (جَعْفَرُ) الشَّيْخَ ، وَأَوْقَفَهُ أَمَامَ الْخَلِيفَةِ ، فَقَالَ لَهُ :

- مَا هِيَ حِكَايَتُكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ ، وَإِنَّمَاذَا تَصْنَعُ حَزِينًا فِي مِثْلِ

هَذَا الْوَقْتِ مِنَ اللَّيْلِ ؟



فقال الشيخ :

- أنا صيادٌ يا سيدي ، وعبدى عيالٌ كثيرون .. لقد خرجتُ مِنْ
بَيْتِي إِلَى الْبَحْرِ مِنْذُ الصُّبْحِ ، وَظَلَلْتُ أَلْقِي شَبَكَتِي ، لَكِنْ اللَّهُ
تَعَالَى لَمْ يَقْسِمْ لِي بِرِّقًا ، أَقْوَتْ بِهِ عِيَالِي ، حَتَّى هَذَا الْوَقْتُ ، وَلِذَلِكَ
كَرِهْتُ نَفْسِي ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَعُودَ إِلَى بَيْتِي بِذَوْنِ بِرِّقٍ ..

فقال الخليفة :

- هَلْ تَعُودُ مَعَنَا إِلَى شَاطِئِ (دِجْلَةِ) وَتُلْقِي شَبَكَتَكَ فِي الْمَاءِ

على بختي ، وأى شيء طلع في الشبكة اشترئته منك بمائة دينار ، حتى ولو كانت سمكة واحدة ؟

ففرح الصياد بهذا العرض المغري ، ورجع معهذ إلى شاطئ (دجلة) ، فرمى شبكته ، وانتظر قليلاً ، ثم جذبها ، فوجدها ثقيلة جداً ، ولم يقدر على إخراجها من الماء ، حتى ساعده (جعفر) و(مسرور) .

وكم كانت ذهشة الجميع ، عندما وجدوا في الشبكة صندوقاً كبيراً مقلولاً ، فأعطى الخليفة للصياد مائة دينار - كما وعده - وأمر وزيره وسياقه بحمل الصندوق إلى القصر .

وفي القصر أمر الخليفة بفتح الصندوق ، فلما فتحه (جعفر) و(مسرور) وجدوا فيه صبيّة مقتولة ، وجهها كأنه البدر في ليلة تمامه . فتأثر الخليفة ، وسالت دموعه على خدم حزناً على القتيلة . ثم صاح في وزيره (جعفر) :

- لا بد أن أقتص لهذه الصبيّة ممن قتلها . اذهب وابحث عن قاتل هذه الصبيّة ، حتى أقتله بقتلها ، وإلا قتلتك مكانه .



فَقَالَ (جَعْفَرُ) :

- سَمِعُوا وَطَاعَةُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .. فَقَطَّ أَعْطَنِي مُهَلَّةٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ،

حَتَّى أَبْحَثَ عَنِ الْقَاتِلِ وَأَحْضِرُهُ ..

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ :

- لَقَدْ أَمَهَلْتُكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ..

غَادَرَ الْوَزِيرُ (جَعْفَرُ) قَصْرَ الْخَلِيفَةِ ، مَهْمُومًا وَهُوَ لَا يَدْرِي ،
كَيْفَ يَفْعَلُ فِي هَذِهِ الْمُصِيبَةِ ، الَّتِي حَلَّتْ عَلَى رَأْسِهِ ، وَقَالَ فِي
نَفْسِهِ :

- مِنْ أَيْنَ أَعْرِفُ قَاتِلَ هَذِهِ الصَّبِيَّةِ ، حَتَّى أَحْضِرَهُ لَهُ ؟ وَإِنْ
أَحْضَرْتُ لَهُ شَخْصًا غَيْرَهُ أَمَرَ بِقَتْلِهِ ، وَيَصِيرُ ذَنْبُهُ فِي رِقَبَتِي ..
وَتَوَجَّهَ الْوَزِيرُ (جَعْفَرُ) إِلَى بَيْتِهِ ، فَمَكَثَ فِيهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَهُوَ
لَا يَدْرِي كَيْفَ يَهْتَدِي إِلَى الْقَاتِلِ ، حَتَّى انْتَهَتْ الْمُهْلَةُ الَّتِي
حَدَّهَا لَهُ الْخَلِيفَةُ ..

وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ أَرْسَلَ لَهُ الْخَلِيفَةُ ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، قَالَ
لَهُ الْخَلِيفَةُ :

- أَيْنَ قَاتِلَ الصَّبِيَّةِ يَا جَعْفَرُ ؟

فَقَالَ (جَعْفَرُ) :

- يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَلْ أَنَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، حَتَّى أَعْرِفَ الْقَاتِلَ ؟

فَلَمَّا سَمِعَ الْخَلِيفَةُ ذَلِكَ ، اغْتَاظَ غَيْظًا شَدِيدًا ، وَأَمَرَ بِصَلْبِ



(جعفر) على باب قصره ، وأمر المُنَادِينَ أَنْ يَنَادُوا فِي شَوَارِعِ
(بَغْدَادَ) : مَنْ أَرَادَ الْفُرْجَةَ عَلَى إِعْدَامِ الْوَزِيرِ (جَعْفَرِ) الْبَرْمَكِيِّ ،
فَلْيَخْرُجْ لِيَتَفَرَّجَ عَلَيْهِ ، فَخَرَجَتِ النَّاسُ مِنْ أَحْيَاءِ (بَغْدَادَ) لِيُشَاهِدُوا
تَنْفِيزَ الْحُكْمِ فِي الْوَزِيرِ ..

أَخَذَ حَرَسُ الْخُلَيْفَةِ يُعِدُّونَ الْعُدَّةَ ، لِيَتَفَيزَ الْحُكْمُ ، مُنْتَظِرِينَ الْإِذْنَ
مِنَ الْخُلَيْفَةِ لِبَدْءِ التَّنْفِيزِ ، وَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ظَهَرَ شَابٌّ ،
وَشَقُّ الرَّحَامِ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى (جَعْفَرِ) فَقَالَ لَهُ :

- أيُّها الوَزيْرُ ، أنا قاتِلُ الصَّبيَّةِ ، التي وجَدْتُمُوهَا في
الصُّدُوقِ بِنَهْرٍ رِجْلَةٍ ..

فلَمَّا سَمِعَ (جَعْفَرُ) كَلامَ الشَّابِّ ، فَرِحَ فَرَحًا شَدِيدًا بِخُلَاصِ
نَفْسِهِ مِنَ الْمَوْتِ ، وَبَيْنَمَا هُمَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ، رَأَى (جَعْفَرُ)
شَيْخًا كَبِيرًا يَتَشَقُّ الرُّحَامَ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ يَصِيحُ قَائِلًا :

- أيُّها الوَزيْرُ ، لا تُصَدِّقْ كَلامَ هَذَا الشَّابِّ ، فَإِنَّا قاتِلُ الصَّبيَّةِ
الَّذِي تَبْحَثُونَ عَنْهُ ..

وَحاولَ الشَّابُّ أَنْ يَنْفِي التَّهْمَةَ عَنِ الشَّيْخِ ، ذَاكِرًا أَنَّهُ هُوَ قاتِلُ
الصَّبيَّةِ ، كَمَا أَصَرَ الشَّيْخُ عَلَى أَنَّهُ هُوَ قاتِلُ الصَّبيَّةِ ..

وهكذا راحَ كُلُّ مِثْلِهِمَا يَنْفِي ، التَّهْمَةَ عَنِ الْآخَرِ ، وَيُحاولُ
إِنصافَها بِنَفْسِهِ ، طَالِبًا مِنَ الوَزيْرِ أَنْ يُعْجَلَ بِتَنْفِيذِ حُكْمِ الْمَوْتِ
فِيهِ .. فلَمَّا رَأَى الوَزيْرُ (جَعْفَرُ) ذَلِكَ أَخَذَ الشَّابُّ وَالشَّيْخُ ، وَتَوَجَّهَ
إِلَى قِصْرِ الْخُلَيْفَةِ ، فَقَالَ لَهُ :

- لَقَدْ أَحْضَرْتُ لَكَ شَخْصَيْنِ ، كُلُّ مِثْلِهِمَا يَدْعِي أَنَّهُ هُوَ قاتِلُ
الصَّبيَّةِ ..



فَنظَرَ الْخَلِيفَةُ إِلَى الشَّابِّ وَالشَّيْخِ وَقَالَ لَهُمَا :

- مَنْ مِنْكُمَا قَتَلَ الصَّبِيَّةَ ؟

فَاصْرُ كُلُّ مَنْ الشَّابِّ وَالشَّيْخِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَتَلَ الصَّبِيَّةَ ،
وَأَنَّ الْآخَرَ بَرِيءٌ .. فَلَمَّا رَأَى الْخَلِيفَةُ إِصْرَارَ كُلِّ مِنْهُمَا ، قَالَ
لِوَزِيرِهِ :

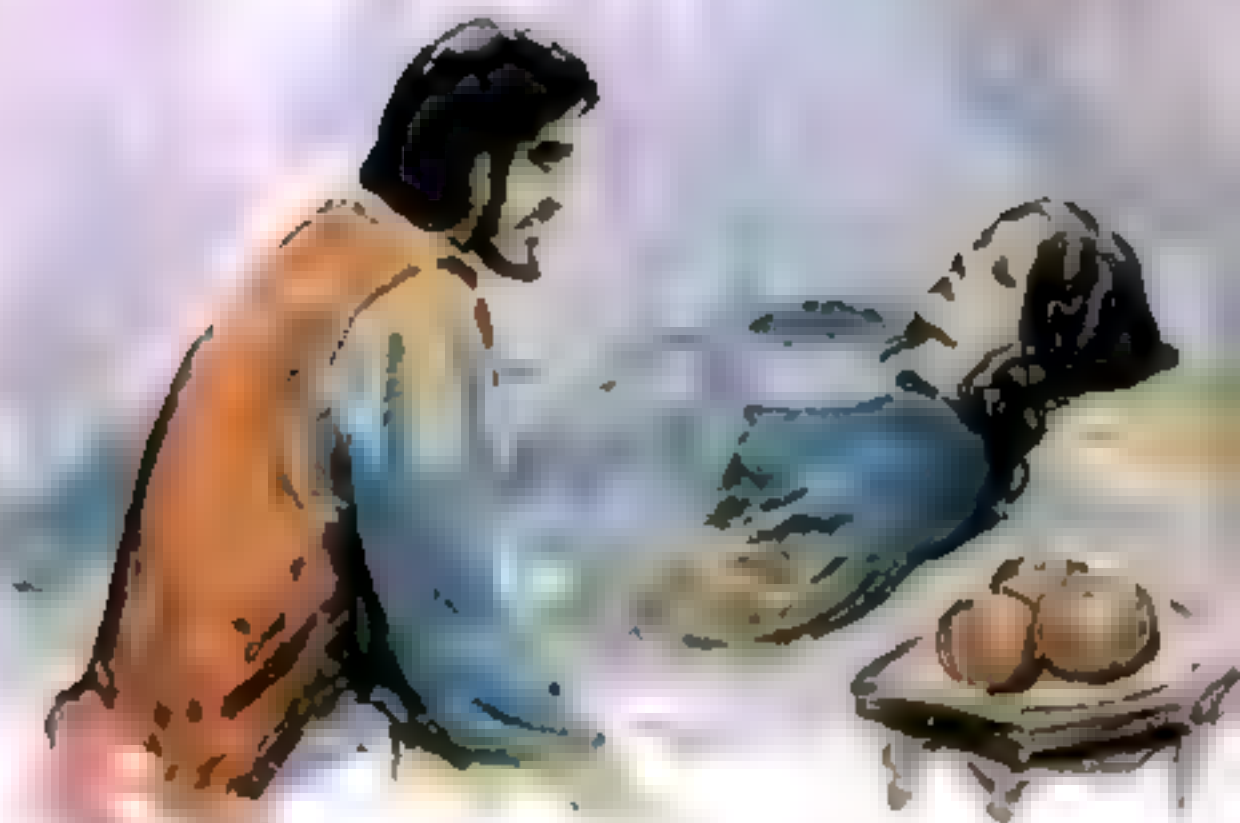
خُذِ الْاِثْنَيْنِ ، وَمُرِ السِّيَافَ (مَسْرُورَ) أَنْ يُنْقِذَ فِيهِمَا حَكْمَ الْمَوْتِ ..
فَقَالَ الشَّابُّ فِي صِدْقٍ :

- وَحَقٌّ مَنْ رَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ ، وَبَسَطَ الْأَرْضَ عَلَى مَاءٍ
جَمَدٍ ، أَنَا الَّذِي قَتَلْتُ الصَّبِيَّةَ ..

وَأَخَذَ يَصِفُ لَهُ الْفَتَاةَ وَمَلَابِسَهَا وَالْأَشْيَاءَ الَّتِي وَجِدَتْ مَعَهَا
دَاخِلَ الصُّدُوقِ .. فَتَحَقَّقَ الْخَلِيفَةُ أَنَّ الشَّابَّ هُوَ قَاتِلُهَا ، وَقَالَ :
- وَلَكِنْ لِمَاذَا قَتَلْتَهَا ؟

فَبَدَأَ الشَّابُّ يَحْكِي قِصَّتَهُ مَعَ الْفَتَاةِ الْفَتِيلَةِ ، ذَاكِرًا لِلْخَلِيفَةِ
أَنَّهَا زَوْجَتُهُ ، وَابْنَةُ عَمِّهِ ، وَأَنَّ الشَّيْخَ هُوَ أَبُوهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ
رَزَقَهُ مِنْهَا بِثَلَاثَةِ أَوْلَادٍ ، وَأَنَّهَا مُنْذُ شَهْرٍ مَرَضَتْ مَرَضًا شَدِيدًا ،
فَاحْضَرَهَا الْأَطِبَّاءُ ، حَتَّى شَفِيتُ ، فَقَالَتْ لَهُ : إِنَّهَا تَشْتَهُى أَنْ
تَأْكَلَ تَفَاحًا ، وَأَنَّهُ بَحَثَ لَهَا عَنِ التَّفَاحِ فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ ، وَفِي
بَسَاتِينِهَا ، فَلَمْ يَوْفُقْ إِلَى الْعُثُورِ عَلَى تَفَاحَةٍ وَاحِدَةٍ ، حَتَّى
يَسْتَرِيهَا لَهَا ..

وَأَنَّ أَحَدَ بَايَةِ الْفَاكِهَةِ قَدْ نَصَحَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى بُسْتَانِ قَصْرِ
الْخَلِيفَةِ فِي بَغْدَادَ ، لِأَنَّ التَّفَاحَ لَا يَوْجَدُ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ مِنَ
الْعَامِ إِلَّا فِي قَصْرِ الْخَلِيفَةِ ، بِمَدِينَةِ (الْبَصْرَةِ) ..



ولما كان الشاب من (بغداد) فقد سافر إلى مدينة (البصرة) وقابل
 بستاني قصر الخليفة هناك ، فاشترى منه ثلاث تفاحات بثلاثة
 دنانير ذهنا ثم حملها عائداً إلى زوجته ، فوجد أن مرض الحمى
 قد اشتد بها ، حتى أفقدها وعيها ، فلما أعطاهما التفاح لم تهتم به ،
 ولم تأكل منه ، بل تركته إلى جانبها

وواصل الشاب حكايته قائلاً :

ـ ظلمت بجوار زوجتي عشرة أيام ، حتى عوفيت من مرضها ،

فخرجتُ من البيت مُوجَّهًا إلى دُكَّامِي ، حتى أَسَاسِرَ تِجَارَتِي
وبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ دَاتِ يَوْمٍ أَمَامَ دُكَّامِي ، مَرُّ عَلَى عِنْدُ اسْتَوْدُ ،
وبِيَدِهِ تَفَاحَةٌ يَلْعَبُ بِهَا ، قُلْتُ ذَلِكَ اسْتِجَابِي ، وَقُلْتُ لَهُ .

مَنْ أَتَى اسْتَرَيْتُ هَذِهِ التَّفَاحَةَ ، حَتَّى اسْتَرَيْ مِثْلَهَا ،
فَضَحَكَ الْعِنْدُ وَقَالَ لَمْ اسْتَرَهَا ، لَكِنِّي كُنْتُ مَسَافِرًا ، وَلَمَّا
عُدْتُ مِنْ سَفَرِي ذَهَبْتُ إِلَى حَبِيبَتِي ، فَوَحَدْتُهَا مَرِيضَةً وَعِنْدَهَا
ثَلَاثُ تَفَاحَاتٍ ، قَالَتْ لِي إِنَّ زَوْجَهَا سَافِرٌ إِلَى (الْبَصْرَةِ)
وَاسْتَرَاهَا بِثَلَاثَةِ دِينَارٍ ، فَاخَذْتُ مِنْهَا هَذِهِ التَّفَاحَةَ .

وَتَوَقَّفَ الشَّابُّ عَنْ رَوَايَةِ حِكَايَتِهِ دَاهِلًا ، فَقَالَ لَهُ الْخَلِيفَةُ :

- وَمَاذَا حَدَّثَ بَعْدَ ذَلِكَ ؟

فَوَاصِلُ الشَّابِّ حِكَايَتَهُ هَانِلًا

- لَمَّا سَمِعْتُ كَلَامَ الْعِنْدِ ، اسْتَوْدْتُ الدُّنْيَا فِي وَجْهِ ، فَاعْلَقْتُ
دُكَّامِي ، وَعُدْتُ إِلَى الْبَيْتِ مُسْرِعًا ، وَالْقَضْبُ يَمْلُؤُنِي ، وَبَطَرْتُ
بِجَوَارِ زَوْجَتِي ، فَلَمْ أَجِدْ سِوَى تَفَاحَتَيْنِ فَقَطْ ، فَسَأَلْتُهَا عَنْ
التَّفَاحَةِ الثَّالِثَةِ ، فَخَصَرْتَنِي أَنَّهَا لَا تَدْرِي أَيْنَ ذَهَبَتْ ..



وهنا تحققت من كلام العبد ، وهجمت

عليها فقتلتها .. ثم وضعتها في هذا الصندوق ، وحملت

الصندوق ، فالتقيت به في نهر رجلة ، حيث عثرت عليه ..

فلما عدت إلى البيت وجدت ولدي الكبير يبكي - ولم يكن قد علم

أنني قتلت والدته - فسألته عن سبب بكائه ، فقال لي :

لقد أخذت تفاحة من التفاحات الثلاث التي عند أمي ، ونزلت

بها إلى الشارع ، لألعب مع رفاقي ، فمر علينا عبد أسود وخطفها

مبني قائلاً : من أين أحضرت هذه التفاحة ؟ فقلتُ له : لقد سافرَ
أبى إلى البصرة ، واشترى ثلاث تفاحات من أجل أمي
المريضة ، بثلاثة دنانير .. وتوسلتُ إليه أن يعيدها لي ، لكنه
أخذها وذهب .. وأنا خائف أن تضربني أمي ..

وانهالت دموع الشاب غزيرة ، وهو يواصل حديثه قائلاً :
.. فلما سمعتُ كلام ابني علمتُ أن العبد قد كذب علي ، وأنني
قتلتُ ابنة عمي ظلماً .. وجلستُ أبكي على قتلها بكاءً حاراً ،
حتى أقبل عمي وعلم بما حدث ، فجلس بجانبى يبكي على فراق
ابنتيه ، وأخذتُ أتأسفُ على قتلها ، حتى علمتُ أن الوزير
(جعفر) سوف يقتل بسببي ظلماً ، فاسترعتُ إلى هنا ، حتى
تُعجلَ بقتلي أيها الخليفة .

فلما سمع الخليفة ما حدث ، قال في غضب :
.. والله لا أقتل إلا ذلك العبد الخبيث ، الذي تسبب بكذبه في
قتل إنسانة بريئة ..

وانتفت الخليفة (هارون الرشيد) إلى وزيره (جعفر) قائلاً :



- أريدُ منك أن تُحضِرَ لي ذلك العَبْدَ الخبيثَ حتى أمرَ بقتله ،
 وإذا لم تُحضِرْهُ قتلْتُكَ مكانه .. أمامكَ مهلةٌ ثلاثة أيام .
 غادرَ (جعفرُ) قصرَ الخليفةِ ، وهو لا يَدْرِي ماذا يَفْعَلُ في هذه
 البُلُوِي الجديدة ، التي وقعتْ على رأسِهِ وقُوعُ الصَّاعِقَةِ ..
 فجلسَ في بيته مُفَوَّضًا أمرَهُ إلى الله ، وهو يَرْجُو أن يُنْجِيَهُ
 هذه المَرَّةُ ، كما نَجَّاهُ في المَرَّةِ الأولى ..

وهكذا انقضت الأيام الثلاثة ، ولم يقف جعفر للعبد على أثر ،
 وفي اليوم الرابع جاءه رسول الخليفة ليذهب إليه مستعداً
 لموت . طالما أنه لم يحضر العبد ، فقام (جعفر) إلى أهله
 يودعهم واحداً واحداً .. وعندهما مال على ابنته الصغيرة
 ليقبلها عثر على تفاحة في جيبتها ، فسألها قائلاً في دهشة :
 - من أين أحضرت هذه التفاحة ..

فقالت له إنها اشترتها بدينارين من عبدهم (ريحان) فأحضر
 (جعفر) العبد ، وسأله عن مصدر هذه التفاحة ، فحكى له
 (ريحان) كيف خطف التفاحة من الطفل ، وكيف بكى الطفل
 وحتى له قصة التفاحات الثلاث .. فعلم (جعفر) أن العبد
 (ريحان) هو المطلوب ، فقادته إلى قصر الخليفة (هارون
 الرشيد) ليلقى جزاءه ..

(تمت)